دَورُ الدِّينِ في ترسيخِ الأخلاقِ والقِيَمِ والمبادئِ الإنسانيَّةِ

محمد قريش شهاب

بسمِ اللَّهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

السَّلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه.

أيُّها السَّادةُ: دَورُ الدِّينِ في ترسيخِ الأخلاقِ والقِيَمِ

سأبدأُ الحديثَ عن موضوعِنا «دَورُ الدِّينِ في ترسيخِ الأخلاقِ والقيمِ والمبادئِ الإنسانيةِ» بتصويرِ معنى الدِّينِ، مستمدًّا مِن لفظِه العربيِّ المكوَّنِ مِن حروفِ الدَّالِ والياءِ والنُّونِ.

يقولُ علماءُ اللُّغةِ: إنَّ الألفاظَ التي تكوَّنَت مِن مجموعِ هذه الحروفِ لها عدَّةُ معانٍ، مِن بينِها: الطاعةُ والخضوعُ والعبادةُ والحسابُ والجزاءُ والتصديقُ والاعترافُ بالفَضلِ والقَرضُ بأجلٍ ... هذه المعاني وغيرُها يربِطُها جميعًا رابطٌ واحدٌ وهو علاقةُ ما بينَ جهتينِ، إحداهما أعلى منزلةً منَ الأخرى.

ومن هُنا نستوحي مِن هذا الرابطِ حقيقةً جليَّةً وهي: لا دينَ لمَن لا علاقةَ له، علاقةً بينَ طرفينِ ... علاقةَ الخضوعِ والطَّاعةِ منَ الجهةِ الأَدنى للأعلى، وهذا ناتجٌ منَ الخوفِ أو الرَّجاءِ أو الاحترامِ والاعترافِ بالفَضلِ، هذا هو تصوُّري لأبسطِ ما في الدِّينِ مِن معنًى بما فيه الدِّينُ الذي يُطلَقُ على مجموعةٍ منَ الأفكارِ والعقائدِ التي توضِّحُ بحسَبِ معتنقِيها الغايةَ منَ الحياةِ؛ ولذلك شاعَتِ العبارةُ القائلةُ: «الدين المعاملة» يعني بقَدرِ حُسنِ المعاملةِ يكونُ حُسنُ التَّديُّنِ، فمِن تلك العلاقةِ تستَمِدُّ الأخلاقُ حُسنَها وقوَّتَها؛ ولذلك كلَّما كان التديُّنُ راسخًا كانتِ الأخلاقُ كريمةً والعكسُ صحيحٌ، وتتجلَّى تلك العلاقةُ بصورةٍ بارزةٍ في الصَّلاةِ التي لا يخلو أيُّ دينٍ منها.

وفي هذا الصَّددِ يقولُ الفيلسوفُ الأمريكيُّ وليام جيمس: «يترجَّحُ لدَينا أنَّ النَّاسَ سيظلُّون يُصَلُّون إلى آخِرِ الزَّمانِ، بالرَّغمِ ممَّا يأتي به العِلمُ من عكس ذلك».

أيُّها السَّادةُ: تعلمونَ أنَّ الرأيَ السائدَ في نشأةِ الدِّينِ هو الخوفُ والقلقُ الذي يتمخَّضُ منهما سعيُ الإنسانِ للبحثِ عن مصدرِ الأمانِ والسلامِ -والذي يتولَّدُ منه بدورِه الاعتقادُ باللَّهِ وحضورُ الوصايا الداعيةِ إلى الفضائلِ والتضحيةِ - وأقولُ: إن كان ذلك كذاك، إلَّا أنَّ الباعثَ الأعمقَ لنشأةِ الدِّينِ هو النَّفخةُ التي نفَخَها اللَّهُ في الإنسانِ عندَ خَلقِه، والذي بها يتمتَّعُ بالعقلِ والرُّوحِ ... عقلٌ يفكِّرُ ويتأمَّلُ... ينظُرُ ويتدبَّرُ غاصًّا في الكونِ الرحيبِ فوجَدَ نظامًا رائعًا وتدبيرًا

مُحكمًا وقدرةً بالغةً لا تكونُ إلَّا مِن إلهٍ قادرٍ حكيمٍ عليمٍ ... بجانبِ هذا العقلِ روحٌ تسعى إلى الكمالِ الإنسانيِّ والعودةِ إلى موطنِه ومصدرِ وجودِه، فروحُ الإنسانِ منذُ أن وطأَ بقَدمِه الأرضَ تتمنَّى العودةَ، فالرُّوحُ كما يصفها جلالُ الدِّينِ الرُّوميُّ: لا تزالُ تئِنُّ أنينَ النَّائي من ألمِ الفِراقِ شوقًا إلى غايتِه.

أيُّها السَّادةُ:

إنَّ الأديانَ السَّماويةَ تؤمِنُ بأنَّ اللَّهَ خلَقَ الإنسانَ مزوَّدًا بالفطرةِ، والمرادُ بها الاعتقادُ بوجودِ الإلهِ الخالقِ المدبِّرِ، يشيرُ كتابُ الإسلامِ إلى تلك الحقيقةِ بقولِه: "فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ" [الرُّوم: ٣٠]. نعم ... قد يخبو هذا الاعتقادُ أو يضعُفُ ولكنَّه لا يتلاشى ولا ينطفِئُ أبدًا..

إنَّ الإنسانيةَ تشعرُ بوجودِ تلكُم القوَّةِ أيًّا كان الاسمُ الذي اختارَه لها؛ ولذلك يقولُ بعضُ الفلاسفةِ: «قد نجِدُ في الماضي أو الحاضرِ مجتمعاتٌ بشريَّةٌ لا تعرِفُ العِلمَ أو الفنَّ أو الفلسفةَ، ولكن ليس ثمَّةَ مجتمعٌ بلا دينٍ».

ومِن منظورِ الدِّينِ الإسلاميِّ إنَّما كان الأمرُ كذلكم؛ لأنَّ اللَّهَ زوَّدَ الإنسانَ منذُ نشأتِه بتلك الفِطرةِ، زوَّدَه بها عندَ خَلقِه وقبلَ هبوطِه إلى الأرضِ، ثمَّ وعَدَه بالهُدَى حينَ هبوطِه، وإنه كما قال: "فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" [البَقَرَة: الآية ٣٨] . يقولُ البعضُ: إنَّ الهُدَى الموعودَ أتَى إلى الإنسانِ عندَما وجَّهَه اللَّهُ إلى اكتشافِ بعضِ الحقِّ والخيرِ والجمالِ، ومنذُ ذلك الحينِ وهو يسعى جادًّا للالتقاءِ بالحقِّ والخيرِ والجمالِ الكاملِ وهو اللَّهُ تعالى متذكِّرًا ما كانت له مِن سعادةٍ ونعيمٍ عندما كان قريبًا منه قبلَ هبوطِه إلى الأرضِ ... فالدِّينُ إذًا وضعٌ إلهيٌّ يوجِّهُ الإنسانَ إلى إيجادِ الحقِّ والخيرِ والجمالِ على وجهِ البسيطةِ، وبذلك نقولُ إنَّ دَورَ الإنسانِ في الأرضِ هو السَّعيُ لإحضارِ ظِلالِ الجنَّةِ التي كان أبو البَشرِ وزوجُه يعيشانِ فيها في سلامٍ وأمنٍ: " لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا، إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا" [الواقعة] ... موفورَ الحاجاتِ الضَّروريةِ مِن طعامٍ وشرابٍ وسَكَنٍ ولباسٍ: " إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى [طه].

أيُّها السَّادةُ: إنَّ البحثَ عن الحقِّ يُثمِرُ العِلمَ والمعرفةَ، وبالخيرِ تحصُلُ الفضيلةُ والأخلاقُ الكريمةُ، وبالجمالِ يأتي الفنُّ والإبداعُ، تلك هي عناصرُ الحضارةِ التي كلَّفَ اللَّهُ عبادَه ليُقيمَها في الأرضِ، على أن تكونَ ممزوجةً بالرُّوحِ الإلهية؛ لأنَّ الحضارةَ القائمةَ بلا رُوحٍ وإنِ استكمَلَت تلك العناصرَ لا تستطيعُ أن تمنَحَ البشريةَ مُناها؛ مِن إبعاد الخوفِ والقلقِ.

أيُّها السَّادةُ: إنَّ للدِّينِ دعامتين أساسيتينِ:

١) الخوفُ بل خشيةُ اللَّهِ تعالى وأعني بالخشيةِ الخوفَ مع التعظيمِ والإعجابِ بعدَ معرفةِ المخشيِّ المؤدِّي إلى الطاعةِ والانقيادِ بل الشَّوقِ إليه.
٢) الاستخلافُ في الأرضِ، وهو يعني القيامَ بالمحافظةِ على صلاحِه وإصلاحِه، مع الأخذِ بيدِ مَن وما في الأرضِ ليصلَ إلى الهدفِ الذي خُلِقَ مِن أجلِه، وهذا باختصارٍ هو بناءُ الحضارةِ بالتنميةِ والنَّهضةِ ... والأمرانِ الخوفُ أو الخشيةُ والاستخلافُ لا ينفكَّانِ عن الأخلاقِ.

والآنَ يأتي السُّؤالُ: ماذا يستطيعُ الدِّينُ أن يقدِّمَ للإنسانِ ومجتمعِه وكيف يقومُ بدَورِه؟ لعلَّ الإجابةَ الأقربَ إلى الصَّوابِ هي: السَّعيُ الدَّءوبُ لتزويدِ الفردِ ومجتمعِه بطاقةٍ إيجابيَّةٍ تُمكِّنُهم منَ العيشِ بمستوًى إنسانيٍّ وأخلاقيٍّ لائقٍ، وتحوِّلُهم عنِ الانحرافِ، علمًا بأنَّ تلك الطاقةَ لا توجَدُ إلَّا عندَ اللَّهِ؛ فإنَّه لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللَّهِ، فمنه نستَمِدُّ القوَّةَ والطاقةَ، فلا غروَ إذًا إذا كان الدِّينُ الإسلاميُّ -وأرجو ألَّا أحيدَ عن كَبدِ الصَّوابِ إذا قلتُ -الأديانُ السماويةُ- يطالبُ الإنسانَ أن يربطَ أعمالَه بذلك الوجودِ المطلقِ، مُتصِلَ الفِكرِ والقلبِ بذلك الوجودِ الكاملِ، ويجعلَ أسماءَه الحسنى قدوةً ومقياسًا لأخلاقِه، فكلُّ صفةٍ مِن صفاتِ اللَّهِ تعالى يترسَّمُها المتديِّنُ، ويلُمُّ بها معرفةً قدرَ الاستطاعةِ ثمَّ يتخلَّقُ بها قدرَ الطَّاقةِ ... .

أيُّها السَّادةُ: إنَّ العبارةَ المكتوبةَ في العهدِ القديمِ وكذا في بعضِ كتبِ أحاديثِ نبيِّ الإسلامِ: وهي: «إنَّ اللَّهَ خلَقَ آدمَ على صورتِه» تشيرُ إلى تكريمِ الإنسانِ وأنَّ اللَّهَ أودَعَ فيه قبساتٍ مِن صفاتِه تُمكِّنُه مِن التشبُّهِ باللَّهِ والتخلُّقِ بأخلاقِه قدرَ الطاقةِ البشريةِ، وأنَّه بهذا جديرٌ أن يكونَ خليفةَ اللَّهِ في الأرضِ.

إنَّ التخلُّقَ بأخلاقِ اللَّهِ هو صَفوةُ الدِّينِ ولُبُّه، بل هو التديُّنُ الحقيقيُّ؛ ولذلك قيل: إنَّ من أقدمِ التعريفاتِ عن الدِّينِ والتديُّنِ هو ما نُسِبَ إلى الفيلسوفِ الرومانيِّ سينيكا، المولودِ في القرنِ الرابعِ قبلَ الميلادِ- القائلِ بـ «أنَّ الدِّينَ هو التشبُّهُ بأخلاقِ الإلهِ»، أو على رأيِ الفيلسوفِ هكسلي Aldous Huxley: «الدِّينُ هو إجلالُ المثلِ العُليا منَ الأخلاقِ ومحبَّةِ العملِ على تحقيقِها»، وما أوامرُ اللَّهِ ووصايا الأنبياءِ والرسلِ إلَّا اخلاقٌ كريمةٌ، ما الوصايا العشرُ إلَّا ناموسُ الأخلاقِ... والمسيحُ عليه السَّلامُ عندما أكَّدَها ولخَّصَها في حُكمينِ إنَّما يؤكِّد وجوبَ الأخلاقِ مع اللَّهِ ومع النَّاسِ... ثمَّ كم مِن وصايا للنبيِّ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ما يؤكِّدُ ذلك، يكفينا قولَه صلى الله عليه وسلم: «إنَّما بُعثتُ لأُتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ»، أخلاقٌ كريمةٌ تشمَلُ الوجودَ كلَّه خالقًا ومخلوقًا.

وقد وصَفَ حكيمُ العربِ في العصرِ الجاهليِّ أكثَمُ بنُ صيفي ما جاءَ به النَّبيُّ محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم بأنه: لو لم يكُن دينًا مِن عندِ اللَّهِ لكان في أخلاقِ النَّاسِ

حسنًا، وعندما حضَرَ جمعٌ مِن المسلمين إلى الحبشةِ راغبينَ في حمايةِ ملَكِها النجاشيِّ لم يكُن تعريفُ الإسلامِ مِن قِبَلِ سيِّدِنا جعفرَ بنِ أبي طالبٍ -عندما طُولبَ بتعريفِه- إلَّا الأخلاقَ، قال عن محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ورسالتِه بأنَّه: «دعانا إلى اللَّهِ لنوحِّدَه ونعبدَه، ونخلَعَ ما كنَّا نعبُدُ نحنُ وآباؤنا مِن دونِه مِن الحجارةِ والأوثانِ، وأمَرَنا بصدقِ الحديثِ، وأَداءِ الأمانةِ، وصِلةِ الرَّحمِ، وحُسنِ الجوارِ، والكَفِّ عنِ المحارمِ والدِّماءِ، ونهانا عن الفواحشِ، وقولِ الزُّورِ، وأكلِ مالِ اليتيمِ، وقذفِ المحصنةِ، وأمَرَنا أن نعبدَ اللَّهَ وحده لا نشركُ به شيئًا، وأمَرَنا بالصَّلاةِ والزَّكاةِ والصيامِ»، وما إن سَمِعَ الملكُ النجاشيُّ إلَّا وقال: «إنَّ هذا والذي جاء به عيسى يخرجُ مِن مشكاةٍ واحدةٍ».

أيُّها السَّادةُ: ما أريدُ مِن سَردي الذي تقدَّمَ إلَّا رغبةً في تأكيدِ بعضِ الأمورِ الآتيةِ المتعلِّقةِ بالموضوعِ الذي نحن بصَدَدِه:

أولًا: بما أنَّ الدِّينَ أو لُبَّه هو الأخلاقُ الناتجةُ من معرفةِ اللَّهِ وخشيتِه، فمنَ الواجبِ -من أجلِ ترسيخِ الأخلاقِ- تأكيدُ السَّعيِ للتعريفِ باللَّهِ وبأسمائِه الحسنى تعريفًا يحبِّبُ التقرُّبَ إليه والتخلُّقَ بأخلاقِه حسَبَ طاقةِ كلِّ فردٍ، إنَّ الحبَّ الحقيقيَّ لا يأتي مِن فراغٍ ... إنه لا يستكِنُّ في النُّفوسِ إلَّا بعدَ المعرفةِ، ويا أسفى كم من أعضاءِ المجتمعِ مَن لم يعرِفِ الإلهَ أو عرَفَه على غيرِ صفاتِه، بل كم منهم مَن يدَّعي أنَّ اللَّهَ قد ماتَ أو ما كان له وجودٌ إلَّا في خيالِ البدائيِّين أو الجهلةِ المغرورين ... ثمَّ كم مِن متحدِّثٍ وناشطٍ باسمِ الدِّينِ الذي يبالغُ في التخويفِ المؤدِّي إلى التنفيرِ بل يثيرُ الكراهيةَ للدِّينِ.

أيُّها السَّادةُ! بهذه المناسبةِ أقولُ: إنَّ مِن أوجبِ الواجباتِ على كلِّ ذي دينٍ أو دارسٍ للدِّينِ -وإن لم يكُن دِينَه - أن ينفيَ ما يُلصقُ بأيِّ دينٍ مِن فكرةٍ أو أعمالٍ تتعارضُ مع الأخلاقِ الكريمةِ كالعنفِ والإرهابِ، وكلِّ ما لا يتماشَى مع أسماءِ اللَّهِ الحسنى.

وفي اعتقادي أن هناك مجالاتٍ واسعةً ومهيَّأةً للتعاونِ بينَ رجالِ الأديانِ السَّماويةِ في مجالِ إثباتِ وجودِ اللَّهِ بالحُججِ المسايرةِ للعصرِ، والتعريفِ بصفاتِ اللَّهِ الحُسنى المرغِّبةِ في التقرُّبِ إليه، والمؤدِّيةِ إلى الأخلاقِ الكريمةِ، وعلى الرَّغمِ مِن اختلافِ معتقِدي الأديانِ السماويةِ في وصفِ ذاتِه تعالى إلَّا أنَّهم مُتَّفِقون في كثيرٍ من صفاتِه: "هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ" [الحَشر: ٢٣]، واللَّهُ بصفتِه «الجبَّار» يَجْبُرُ الكَسيرَ ويعطي الفقيرَ، يرأَبُ الصَّدعَ ويلُمُّ الشَّملَ، وهو إنَّما

يتكبَّرُ على مَن نازَعَه في كبريائِه .... إنَّ التأكيدَ بمعاني هذه الصِّفاتِ وأمثالِها لكفيلٌ في المساهمةِ في ترسيخِ الأخلاقِ الكريمةِ والقيمِ النبيلةِ.

ثانيًا: بما أنَّ الدِّينَ هو الأخلاقُ أو أنَّ الأخلاقَ لُبُّه، فلا يصِحُّ الفَصلُ بينَ عقيدتِه -وهي الأصولُ الفكريَّةُ التي يجِبُ اعتقادُها- وشريعتُه -وأعني بها مجموعةَ الأحكامِ والقوانينِ التي شرَعَها اللَّهُ لتوجيهِ السُّلوكِ العمليِّ- لا يصِحُّ فصلُهما عن الأخلاقِ -سواءٌ في الفصلِ الدراسيِّ عندَ تدريسِ أيَّةِ مادَّةٍ علميَّةً كانت أو دينيةً- أو في موقعِ عملِ الفردِ في المجتمعِ، وإنَّما كانَ الدِّينُ هو الأخلاقَ؛ لأنَّ الصلاةَ: "تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ" [العَنكبوت: الآية ٤٥] ...، وفي الزَّكاةِ والصَّدقةِ يوصي تعالى: "لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ" [البَقَرَة: الآية ٢٦٤] ... وفي الصومِ يقولُ الرسولُ صلى الله عليه وسلم: «مَن لم يدَعْ قولَ الزُّورِ والعملَ به فليس للهِ حاجةٌ في أن يدَعَ طعامَه وشرابَه».

وهذا يتطلَّبُ - في مجالِ التربيةِ والتعليمِ إعادةَ النَّظرِ في مناهجِ وموادِّ التعليمِ، بالإضافةِ إلى إعدادِ وتزويدِ كلِّ مَن له صلةٌ-قريبًا كانَ أم بعيدًا - بالمهمَّةِ الأخلاقيةِ، ففي المؤسَّساتِ التعليميةِ مثلًا لا يقتَصِرُ مهمَّةُ تدريسِ الأخلاقِ على مدرِّسي الدِّينِ والأخلاقِ، ولكن على المدرِّسينَ في شتَّى العلومِ، في ثنايا شروحِهم لمادَّةِ الدَّرسِ أو على أقلِّ تقديرٍ بالقدوةِ الحسَنةِ؛ فإنَّ القدوةَ نوعٌ منَ التدريسِ والتلقِّي... وإذا قلنا: القدوةُ الحسنةُ فلا نُطالبُ بكمالِها وأحسنِها، فهو أمرٌ عسيرٌ يعِزُّ وجودُه حاليًّا، وكلُّنا معرَّضون للخطأِ والخطيئةِ، وخيرُ الخطَّائينَ التوابونَ، إنَّ نجاحَ المؤسسة التعليمية لا يُقاسُ فحسب على المستوى العلميِّ الرفيعِ الذي تتمتَّعُ به هيئةُ التدريسِ ولا على قدرةِ الطَّلبةِ في فهمِ واستيعابِ العلومِ المدروسةِ، ولكن يُقاسُ أيضًا بأخلاقِ كلِّ واحدٍ ممَّن له دَورٌ في المؤسسةِ التعلميةِ، إداريين ومدرِّسين وموظَّفين وطلَّابٍ.

ثالثًا: إنَّ الأسرةَ هي الوَحدةُ الاجتماعيةُ الأولى التي تقابلُ الإنسانَ، وهي المسئولةُ الأولى في غرسِ الأخلاقِ الكريمةِ، ومن هنا يجِبُ الاهتمامُ بالأسرةِ .... وللدِّينِ هنا دَورٌ كبيرٌ في تثقيفِ المقبلينَ على الزواجِ في مسئولياتِ ووظائفِ الأبوينِ التي لا تقتصِرُ على التناسلِ والحبِّ المتبادلِ -أو بأصحِّ تعبيرٍ- في تنميةِ المودَّةِ والرَّحمةِ، ولكن بالإضافةِ إلى هاتينِ هنالك وظائفُ أسريَّةٌ لا تقِلُّ أهميَّةً عنهما تتمثَّلُ في وظائفَ دينيةٍ وتعليميةٍ وثقافيةٍ واقتصاديةٍ، بالإضافةِ إلى قدرةِ التربيةِ بالقدوةِ الحسنةِ، عِلمًا بأنَّ الطِّفلَ يستفيدُ بنظَرِه أكثرَ بكثيرٍ مِن سَمعِه، أريدُ أن ألخِّصَ بأنه يتحتَّمُ على المُقبلينَ على الزواجِ استيفاءُ شروطٍ محدَّدةٍ -بما فيها السِّنُّ المناسبُ- لهما.

رابعًا: يقالُ: إنَّ المجتمعَ الإنسانيَّ حاليًّا يغتسِلُ مِن نَبعينِ (دُشَّينِ) متناقضينِ أحدُهما نظيفٌ طاهرٌ والآخَرُ نجسٌ قذرٌ، ويا لجسامةِ المشكلةِ؛ لأنَّ الماءَ النظيفَ ينزِلُ قطرةً بعدَ قطرةٍ، وأمَّا القَذرُ فينصَبُّ غزيرًا مخلوطًا بالمسكِ المسمومِ.

يتجلَّى هذا التشبيهُ بالمقارنةِ بينَ نشاطِ المصلحينَ وبينَ ما قدَّمَته وتقدِّمُه كثيرٌ مِن وسائلِ الإعلامِ المكتوبةِ والمسموعةِ والمرئيةِ؛ انظُروا كم نسبةُ المسلسلاتِ والأفلامِ السينمائيةِ المعروضةِ التي لا تتماشَى مع الأخلاقِ الكريمةِ -كم نسبتُها إذا قُورنت بغيرِها؟ كم مِن أخبارِ سوءٍ تُنشرُ إذا قارنَّاها بالأخبارِ الطَّيبةِ؟ كلُّ ذلك بدعمٍ ماليٍّ كبيرٍ وتكنولوجيٍّ حديثٍ وفلسفةِ نشرٍ مبنيَّةٍ على الباطلِ، ومِن أجلِ كسبِ الأموالِ على حسابِ الأخلاقِ، وممَّا زادَ الطِّينَ بِلَّةً أنَّ نشاطَ المصلحينَ أغلبيَّتُه في صورةِ خطبٍ ناريَّةٍ ونقدٍ لاذعٍ في غيرِ محلِّه أو وقتِه، وبعضُها توجيهاتٌ لا تتناسبُ مع حاجاتِ المجتمعِ أو عقليَّاتِه، وهي فقيرةٌ منَ الأدلَّةِ العلميةِ بينَما الجانبُ الآخَرُ يقدِّمُ بضاعتَهم بوسائلَ شتَّى مكسوَّةٍ بكساءٍ يجذِبُ ضعافَ النُّفوسِ.

إنَّ الواجبَ على وسائلِ الأعلامِ -حتى لو فرَضنا أنَّ ما تنشُرُه من أخبارٍ ومناظرَ مُخِلَّةٍ واقعٌ بالفعلِ، حتى لو فرَضنا أنَّ الأمرَ كذلكم- ما كانت دينيًّا ولا أخلاقيًّا لِتَنشُرَه، وإذا كان لا بُدَّ مِن نشرِه أو عرضِه فليكُن بدونِ إغراءٍ لتقليدِها أو التصفيقِ لها، وتكونُ ببيانِ عاقبتِه الوخيمةِ.

إنَّ كثرةَ نشرِ السلبياتِ تُغري ضعافَ العقولِ والنفوسِ، فما بالُكم بالبَراعمِ الصاعدةِ وقديمًا كان ابنُ المقفَّعِ يقولُ: إذا قلَّ المعروفُ صارَ منكرًا، وإذا شاعَ المنكرُ صارَ معروفًا.

إنَّ تكرارَ الشيءِ المبهرِ يكمشُ الإعجابَ به شيئًا بعدَ شيءٍ، وكثرةُ رؤيةٍ أو سماعِ القبيحِ يقلِّصُ الاشمئزازَ والنفورَ منه ويشجِّعُ على تقليدِه، ومن هذا الواقعِ المؤسفِ يتحتَّمُ علينا جميعًا -كرجالِ دينٍ- أن نحاولَ سدَّ أبوابِ انتشارِ الفسادِ، فما من دينٍ إلَّا ويؤكِّدُ بأنَّ اللَّهَ لا يحبُّ الفسادَ، "إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ" [النُّور: ١٩] ... وإذا كنَّا عاجزينَ في مواجهةِ هذا الوضعِ بالقضاءِ عليه فلا أقلَّ من إقامةِ حاجزٍ يمنعُ من زيادةِ تفشِّيه، حاجزٍ يشبِهُ العازلَ للتيارِ الكهربائيِّ... وأتصوَّرُ أن يقومَ بدَورِ العازلِ على الأقلِ جهتانِ:

١) مجموعةٌ منَ الشبابِ الواعينِ والفاهمينَ جيِّدًا لدينِهم، يندمِجُ مع غيرِهم في الجامعاتِ والمعاهدِ في أنشطةٍ إيجابيةٍ ومناقشاتٍ علميةٍ وثقافيةٍ ورياضيةٍ بهدفِ الحيلولةِ دونَ تلوُّثِ الأصحَّاءِ.

٢) الحكومةُ وأصحابُ السلطاتِ؛ فإنَّ لهم منَ السُّلطةِ والصلاحيةِ في الأمرِ والنَّهيِ وتقنينِ القوانينِ، بل لهم منَ القوَّةِ ما لم تكُن لغيرِهم ... إن لم تكُن مشاركاتُهم نابعةً من وازعٍ دينيٍّ فلتكُن من كونِهم مسئولينَ عن حفظِ كيانِ الأُمَّةِ منَ الانقراضِ والفناءِ.

إنَّما الأممُ الأخلاقُ ما بقِيَت

فإن همُوا ذهبَت أخلاقُهم ذهَبوا

نعم، قد يقولُ البعضُ: لم يعُدِ العازلُ نافعًا، فقد تحطَّمَتِ الحواجزُ واندقَّتِ الحصونُ بالعَولمةِ، ودخَلَتِ الشُّرورُ بأنواعِها مضاجعَنا، متى وكيف شاءَ، فما الحلُّ؟ لعلَّ أحدَ الحلولِ هو الاستفادةُ من تلك الشُّرورِ كاستفادةِ الإنسانيةِ من وجودِ الشيطانِ ... فلولا الشيطانُ ما عرَفنا الفضيلةَ ... لولا المرضُ ما عرَفنا قيمةَ الصحَّةِ، إذًا فلنواجِهُ الشرَّ أينما كان بكشفِ قناعِه والتحذيرِ مِن مغبَّةِ اتِّباعِه.

خامسًا: إنَّ الإنسانيةَ وحدةٌ واحدةٌ تركَبُ سفينةً واحدةً، والقرآنُ يصوِّرُ تلك الوَحدةَ بقولِه: "مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا" [المَائدة: ٣٢] ، وعلى هذا الأساسِ يجِبُ المحافظةُ على السفينةِ حتى لا تغرَقَ أو تتَّجِهَ إلى غايةٍ غيرِ غايتِها.

أيُّها السَّادة! بوحيٍ من الأديانِ واسترشادٍ بالعقولِ السليمةِ سُجِّلَت مبادئُ وحقوقٌ للإنسانِ التي مِن شأنِها أن تُحقِّقَ للإنسانِ إنسانيَّتَه وتوجِّهَ أنشطتَهم إلى دائرةِ الحقِّ والخيرِ والجمالِ، متجنِّبًا عمَّا يُخِلُّ بوجودِه ككائنٍ عاقلٍ مُستخلفٍ في الأرضِ ومسئولٍ عن سلامتِه ... فإذا كان الأمرُ كذلك فلا يصِحُّ دينيًّا وأخلاقيًّا إلاَ التأكيدُ بأهميةِ تلك المبادئِ والعملِ بموجَبِها ... إلَّا أنَّه تأكيدًا لدَورِ الدِّينِ في ترسيخِ الأخلاقِ والمبادئِ الإنسانيةِ يجِبُ أن نتعاوَنَ في الحيلولةِ دونَ اتخاذِ تلك المبادئِ والحقوقِ ذريعةً للظلمِ والاستبدادِ، كما يجِبُ المعارضةُ بشدَّةٍ على تفسيرِ تلك المبادئِ بتفاسيرَ تتعارضُ مع إنسانيةِ الإنسانِ، أو يتخِذ من نقاطِها الرئيسيةِ فروعًا تسلَخُ إنسانيةَ الإنسانِ وتفقِدُه روحانيَّتَه، إنَّ الإنسانَ مكوَّنٌ من امتزاجِ الرُّوحِ والجسدِ على مقدارٍ مناسبٍ، إنَّه كالماءِ لا يكونُ ماءً إلا إذا امتزَجَ الأكسجينُ بالهيدروجين على مقدارٍ معيَّنٍ.

أيُّها السَّادةُ ... باللَّهِ عليكم هل يصِحُّ أن يمتَدَّ من حقِّ الحريةِ وحريةِ التعبيرِ حريةُ النَّيلِ بالسُّوءِ من المقدَّساتِ الدينيةِ وشخصياتِها؟ وهل يستقيمُ عقلًا أن يترتَّبَ من حقِّ الرَّجلِ والمرأةِ في التزوُّجِ متى بلغا سنَّ الزواجِ، أن يمتَدَّ ذلك الحقُّ إلى حدِّ إباحةِ الزواجِ بينَ الجِنسِ الواحدِ؟

أيُّها السادةُ! كما كان الإسهامُ في تأسيسِ المبادئِ الإنسانيةِ وحقوقِها من أهمِّ إنجازاتِ الدِّينِ سابقًا فكذلك ترسيخُها وحمايتُها من أيِّ اعتداءٍ من أهمِّ واجباتِ حُماةِ الدِّينِ والأخلاقِ.

إنَّ ترسيخَ الأخلاقِ والقيمِ يبدأُ بتطهيرِ العقولِ والقلوبِ ممَّا علِقَ بهما من دَرَنٍ ليستجيبَ من جديدٍ لندائِهما كما كان سابقًا، فالتخليةُ قبلَ التحليةِ، وإفراغُ ما في الجُعبةِ من الأخطاءِ شرطٌ لشَحنِها بالفضائلِ.

سادسًا: إنَّ التنميةَ إحدى المهامِّ الملقاةِ على الإنسانِ، وإنَّ الفقرَ من أسبابِ تدهورِ الأخلاقِ، حتى قيل: كادَ الفقرُ أن يكونَ كفرًا، من أجلِ ذلك كان من أهمِّ أدوارِ الدِّينِ تقديمُ الحلولِ العمليةِ لمكافحةِ الفقرِ، ولا أقصِدُ بها مضاعفةَ الحثِّ على بذلِ الزكاةِ والصَّدقةِ، ولكن بالتنميةِ والنهضةِ الاقتصاديةِ، بالحثِّ على العملِ الدءوبِ في حدودِ ما حدَّدَه اللَّهُ ثم بالقناعةِ بنتائجَ العملِ مع الشُّكرِ للهِ؛ «فليس الغنى بكثرةِ العَرَضِ ولكنَّ الغِنى غِنَى النَّفسِ».

هنا يَقْفِزُ إلى الأذهانِ من جديدٍ فكرةُ التشبُّهِ بأخلاقِ اللَّهِ... فمن صفاتِه «الغِنَى» ومعنى غناهُ تعالى هو عدمُ احتياجِه إلى شيءٍ، بل هو المُعطي لما يحتاجُه الوجودُ كلُّه، وعلى ذلك فكلُّ مَن قلَّ شعورُه بالحاجةِ كثُرَتْ عطاياه للمحتاجينَ كان غنيًّا، وهذا هو معنى القناعةِ: وهو عملٌ دءوبٌ للحصولِ على الكثيرِ ثم بذلِ العطاءِ للمحتاجينَ إيثارًا على أنفسِهم .... .

أيُّها السَّادةُ: أخيرًا على الرَّغمِ من صعوبةِ الموقفِ بما لا يحتاجُ إلى بيانٍ، إلَّا أنَّنا لا نفقِدُ الأملَ، لأنَّنا نسمَعُ ونقرأُ حاليًّا -عن غيرِ قليلٍ منَ المفكِّرينَ- من يُنذِرُ بفناءِ الإنسانيةِ، إذا استمرَّ الوَضعُ على ما هو عليه، مع أنَّ هؤلاء ليسوا من المتخصِّصينَ في علومِ الدِّينِ أو العاملينَ في حقلِه، وبالإضافةِ إلى ما قلناهُ نشاهدُ كمًّا ممَّن أتخَمَتهُم الماديةُ يشكو من فقدانِ الراحةِ والاطمئنانِ فراحَ بعضُهم يلتمِسُ الراحةَ إلى الموسيقى والآخَرُ إلى السياحةِ، وآخرون إلى اللَّامعقولِ، كلٌّ يبحَثُ عن ضالَّتِه، وكلُّها أماراتُ الاستعدادِ للعودةِ إلى الدِّينِ واستجابةِ مطالبِ الإنسانيةِ، أيُّها السَّادةُ ، فلْنتَلَقَّف ذلك واللَّهُ المستعانُ وعليه التُّكلانُ.

وفي النِّهايةِ أؤكِّدُ لكم أن بحثي لا يقدِّمُ جديدًا، ولكنه تذكيرٌ لنفسي وللناسِ.

والسَّلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتُه.